قصصنا القومى

بحث للكاتبة السورية
ألفة الأدلبى

ما من ثورة كان لها تأثير فعال فى تطوير حياة أمة من الامم الا انبثقت أول ما انبثقت من شق القلم قبل أن تلتمع على شفرات السيوف ، أو تنطلق من فوهات المدافع .

وما كان لثورتنا العربية التى جاءت تهدف الى تحرير العرب من الاستعمار والى بناء مجتمع جديد يكفل للفرد العربى حياة شريفة كريمة أن تشذ عن هذه القاعدة . كان أول من مهد لهذه الثورة المفكرون والأدباء حين راحوا يصورون فى أدبهم الواقع الأليم الذى يعيشه العرب فى مختلف أقطارهم . فما الأدب بمفهومه العام الا تعبير عن واقع الحياة التى يعيشها الأدباء ، أو الناس من حولهم ، ثم عن الأحداث التى ينفعلون بها ، وأخيرا عن الأهداف التى يرمون اليها .

ولما كان نضالنا القومى من أهم الأحداث التى ننفعل بها ، ومن اسمى الأهداف التى نرمى اليها ، كان من البديهى أن تظهر صور هذا النضال فى نتاجنا الأدبى على مختلف فنونه وألوانه . ولا نكون مغالين أبدا اذا قلنا انه اجتمع لدينا نحن العرب منذ مطلع هذا القرن الى يومنا هذا ثروة طائلة من الأدب القومى ما نخالها اجتمعت لغيرنا من الامم ، ولا بد لنا أن نتساءل : هل كان للقصاصين العرب نصيب فى حمل الرسالة القومية كما كان لغيرهم من الأدباء وبخاصة الشعراء ؟

فمما لا شك فيه ان شعرنا القومى كان نقطة الانطلاق لفكرة الوحدة العربية بعد أن شتت شملها المستعمرون ومن قبلهم الشعوبيون . فكان الشعراء العرب حين يهاجمون الاستعمار العثمانى يهاجمونه باسم العرب كأمة واحدة ، وبذا كان لهم تأثير واضح فى بعث الثورة العربية الكبرى ضد الأتراك .

غير ان الشعر يهزنا هزة آنية سريعة . أما القصة فتتسلل الى أفكارنا برفق وتؤدة ، وتتغلغل فى أغوار عميقة من نفوسنا قد يعجز عن بلوغها أى فن من فنون الأدب ، لأن كل فكرة تنمو ببطء ، كما تنمو الفكرة فى القصة ، لا بد لها حين تستكمل نموها أن ترسخ فى الذهن ، وتسيطر على التفكير سيطرة من الصعب التغلب عليها ، أو التخلص منها ، وعدا ذلك فالقصة كما يقول الشاعر الانكليزى ـ لويس ماكنس ـ جبار عنيف يستطيع أن يهضم كل شىء ، ويستوعب أى لون من ألوان الحياة .

كذلك نجد القصة ، لاسيما فى عصرنا هذا أكثر انتشارا وتداولا بين القراء من اى نوع آخر من الادب ، وما ذاك الا لأن القراء يتذوقونها على مختلف اذواقهم وثقافاتهم واعمارهم .

فالى اى مدى استطاع القاصون العرب أن يفيدوا من هذه الطاقة الهائلة للقصة ؟ وهل استطاعوا أن يستغلوا فعاليتها فى خدمة الثورات العربية والمبادىء القومية ؟

قبل أن نصدر حكمنا لا بد لنا أن نلقى نظرة خاطفة على تاريخ القصة فى ادبنا العربى الحديث .

لقد أجمع مؤرخو القصة العربية على اننا أول ما كتبنا القصص كتبنا القصص الاجتماعية ذات المغزى الاخلاقى التهذيبى ، ثم القصص العاطفية ، وقصص المغامرات ، ثم القصص التاريخية . أما القصص المستوحاة من نضالنا القومى فلم تظهر فى الفترة الأولى من نتاجنا القصصى ، هذا على الرغم من كثرة الحوادث التى توحى بها ، ومن شدة الحاجة اليها . وما نخال هذا التخلف جاء عن تقصير من القصاصين العرب بل جاء كنتيجة حتمية لأدبنا القصصى الناشىء الذى كان لا بد له أن يمر بمراحل كثيرة قبل أن يصل الى درجة الاصالة التى تتيح له صدق التعبير عن واقع الحياة التى يعيشها كتابه وعن أحاسيسهم ومشكلاتهم كان لا يزال فى دور التقليد والاقتباس والتأثر بالغير .

فالقصة بمفهومها الحديث دخيلة على أدبنا العربى ، قد انقطعت الصلة بينها وبين تراثنا القصصى القديم ، بينما نجد لشعرنا العربى القومى جذورا راسخة ، بعيدة الغور فى ادبنا العربى ، وما يقال منه اليوم ما هو الا امتداد لما قبله ، ثم ان القصة فى حاجة الى زمن طويل كى تختمر فى الذهن وكلما بعدت هذه المدة الزمنية عن الحادثة بدت معالم القصة أكثر وضوحا فى ذهن القاص اى من الصعب جدا أن تكتب ابان الحادثة ، واذا كتبت فقلما تبلغ مستوى النجاح .

وهناك سبب آخر لعله أقوى الاسباب التى دعت الى تخلف القصة عن بقية فنون الأدب فى الميدان القومى ، وهو اننا لم نكن فى بدء كتابتنا للقصة ننظر اليها نظرة جدية ، بل كنا نجدها أضعف من أن تستوعب موضوعا جديا كالموضوع القومى بل كانت تكتب غالبا للتسلية وتعتبر مضيعة للوقت . يقول الدكتور يوسف نجم فى كتابه « القصة فى الأدب العربى الحديث » :

ان الادباء كانوا يحتقرون كتاب القصة ، ويعتبرونهم فئة متخلفة من ذوى المواهب الهزيلة ، لذا كانت المجلات الرصينة تتنكب عن نشر القصص . فالمقتطف احجمت فى بادىء الامر عن نشر القصص ، و أبدت فى مناسبات كثيرة استنكارها لقراءة الروايات لما تسببه من قلق للشبان والشابات ، وطلبت من المربين والأولياء أن يحثوا أولادهم على قراءة الموضوعات النافعة التى تربى القوى العقلية والأدبية كى لا يتاح لهم الوقت الكافى لقراءة القصص والروايات مما يفسد الاخلاق .

فكيف بعد هذا تستطيع القصة أن تخوض المواضيع الجدية كموضوع النضال ضد الاستعمار ، أو المواضيع القومية الأخرى ، ولفيف من كبار الأدباء وموجهي الأدب ينظرون اليها هذه النظرة ؟

ولكن بالرغم من هذه الآراء ، وفي الفترة نفسها ، قيض الله للقصة أدباء من روادها الأوائل كالأستاذ محمود تيمور الذي دأب على كتابتها ما يقارب نصف قرن بما أوتي من طاقة فنية هائلة على ابداعها فأخذ بيدها منذ كانت طفلة تحبو وراح يشجع الأدباء الناشئين على كتابتها حتى درجت في كنفه على قدميها وتبوأت مكانها في أدبنا الحديث .

كذلك نجد من كبار الأدباء جبران خليل جبران يحض على كتابتها . يقول الأستاذ يوسف نجم في كتابه « القصة في الأدب العربي الحديث » :

عثرنا بين رسائل جبران خليل جبران في بشرى على رسالة كتبها الى اميل زيدان صاحب مجلة الهلال عام ١٩١٩ يقول فيها :

سوف أبعث لك بمقال او بحكاية للسنة القادمة وعلى ذكر الحكاية الا ترى أننا بلغتنا في نهضتنا الأدبية ، أو شبه الأدبية نقطة تستدعي تشجيع الكتاب وترغيبهم في ابداء افكارهم ، ومنازعهم واخلاقهم في قالب الحكاية ؟ لقد مل الناس المقالات والقصائد ، والشرقي يميل طبعا الى سرد الحكايات ، بل هو الذي ابتدع هذا الفن . ولكن الشرقي في ايامنا هذه لا يتحول الى كاتب ، أو شاعر حتى ينسى أفضل مواهبه ان الحكايات والروايات هي التي سببت الانقلابات السياسية والاجتماعية في أوربا ، وامريكا .

وعندي أنه يجب علينا ايقاظ هذا الميل في الشرقيين لأنه أفضل وسيلة لما تكنه الغريزة الفنية . فالحياة الفنية لا ولن تصير ذات شأن الا بواسطة الاختلاف الفني ، وليس هناك شيء أدعى للاختلاق الفني من الحكاية . هذا لو كتبت فصلا في هذا الموضوع وابنت رغبة الهلال في الحصول على الحكايات . انتهت الرسالة .

ولكن جبران نفسه لم يكتب القصة التي تعبر عن ثورة الانسان العربي آنذاك على مستعمريه . مع ان لبنان — وطن جبران — كان أكثر الاقطار العربية تأثرا بالظلم التركي . كانت بعض قصص جبران فلسفية ، وبعضها الآخر يدور حول نقد رجالات الدين أو نقد الاوضاع الاجتماعية في بلاده لا سيما ما كان منها يتعلق بالزواج ، وبضغط حرية المرأة . كذلك نفتقد هذا اللون في نتاج ميخائيل نعيمة القصصي ، وعلى يدي هذين الأديبين ازدهرت القصة في المهجر ولكنها لم تبرز في المواضيع القومية التي برز فيها الشعر المهجري ، حيث كان يتاح في المهجر للأدباء حرية النشر ، حين كان يتحرق عليها زملاؤهم في البلاد العربية . وبالرغم عن ذلك كله لا نعدم بين رواد القصة الأوائل من اتسعت قصصه لمعالجة قضية الحرية ، والحض على الثورة ضد الحكام الظالمين .

يقول الاستاذ شاكر مصطفى في كتابه « تاريخ القصة في سورية » :

ان اسكندر المراش كتب عام ١٨٦٢ قصة بعنوان (غابة الحق) وتعتبر أقدم مشروع قصصي في الأدب العربي الحديث . وهي رمزية تتركز على مفهوم الحرية ، وتحرير الانسان من ربقة العبودية . كتب عن هذه القصة اديب يسمى عبد المسيح انطاكي يقول :

ان اول من اقدم على تنبيه خواطر العرب على النهوض ، هو المرحوم فرنسيس المراش في قصته (غابة الحق) . ويؤكد ان هذه القصة بتاريخها المبكر ستظل من ابرز الكتب التي كتبت لتطوير الوعي العربي الحديث . كذلك نجد ايضا قاصا آخر نحا منحى المراش هو القاص السوري نعمان القساطلي الذي نشر عام ١٨٨٣ قصصا يدعو فيها الى فكرة الحرية ، الدعوة الخطرة التي كان من الممكن أن تكلفه حياته في أيام السلطان عبد الحميد . فنراه يحمل على الملوك ، وظلم الملوك ، ويعلن كأولئك الذين سبقوا الثورة الفرنسية ضرورة الثورة على الظلم والطغيان ، ويدعو الى حب الوطن كلما اراد التحدث عن النهضة والتقدم ، ولا شك ان جرأته اذ ذاك تدهشنا حتى نكاد نحسب الا عبد الحميد ، ولا رقابة ولا تجسس على الرءوس والقلوب .

وما عدا هذين القاصين من الرواد الأوائل لا نلمح القصة التي تمهد للثورة وتحث عليها ، أو تؤرخ لمعركتنا النضالية في سبيل الحرية الا ما ندر جدا أو من النوع الذي لا يعيش طويلا لضعف تركيبه الفني .

ويأخذ أدب القصة في النمو والانتشار ، ويصبح معظمه مركزا على نقد أوضاعنا الاجتماعية ، وابراز عيوبها مضخمة ، وعلى التقاليد البالية التي تسبب تأخرنا عن ركب الحضارة . ثم تظهر قصص تصور نضالا طبقيا بين الشعب الواحد فتحمل على الاقطاع ، وما ينجم عنه من فقر وجهل ، وتمهد للاشتراكية ، ويظهر جليا في هذه القصص تأثرنا بالأدب الروسي المترجم . ولا ننكر أبدا أن هذا كله أدب قومي .

يقول ـ جان بول سارتر ـ ان الادب العربي الحديث يجب أن يعبر عن نضال شعوبه ، وان الانسان يجب أن يكون مادته ، وان التقدم والحرية يجب أن يكونا هدفه .

ويرد توفيق الحكيم على (سارتر) في كتابه (أدب الحياة) بما معناه أن الأدب العربي لم يهمل هذه الرسالة أبدا . والا لما نشر (سارتر) نفسه فصولا متتابعة عن كتاب توفيق الحكيم (يوميات نائب في الأرياف) في مجلته (أوطان مودرن) والمعروف في فرنسا وفي كل مكان من العالم ان (سارتر) لا ينشر في مجلته هذه الا كل أدب يتجه الى الاهداف عينها ووصفها ووجدها معبرة عن نضال الشعوب مدافعة عن الانسان ، مكافحة عنه ضد الظلم ، معينة على الحرية والتقدم . وقد أصاب توفيق الحكيم في رده هذا ، لأن تصوير واقعنا بما فيه من ظلم وتأخر وانحراف كما صوره في يوميات نائب في الارياف ينبه الاذهان لاصلاح هذا الفساد فهو لا شك أبدا أدب قومي نضالي كالكثير من قصص الاستاذ محمود تيمور أو

قصص مجموعة (المعذبون فى الارض) للدكتور طه حسين ، ولكن نقصد من بحثنا هذا القصة التى تحرض على النضال فى سبيل الاستقلال و الحرية أو تؤرخ للمعركة فيما بعد .

فما من حرب أو ثورة الا وتمخضت عن قصص وروايات تؤرخ لها أدبيا . فالتاريخ مهما كان صادقا لا يستطيع أن يصور لنا تفاصيل جزئية أو يرسم لنا مشاهد نابضة بالحياة كما تستطيع القصص والروايات ، ولو بعدت هذه عن الحقائق الواقعة بقدر ما يقترب منها التاريخ .

وتظل القصة من طويلة وقصيرة متخلفة عن غيرها من فنون الادب فى دعم الحركة النضالية فى سبيل الحرية حتى عام ١٩٣٩ حيث ظهرت بشائرها على يد القاص ـ توفيق عواد ـ فى قصته «الرغيف» وهى القصة التى استطاعت أن تعبر أصدق تعبير عن الثورة القومية ضد الحكم التركى . وفى السنة نفسها ظهرت (قدر نلهو) لشكيب الجابرى ، وسبقتهما قليلا ـ عودة الروح ـ لتوفيق الحكيم .

وبما أن قصة الرغيف تصور صراعا دخلت فيه شعوب عدة اقطار عربية لا شعب واحد فقط رأينا أن نختارها للتلخيص كنموذج للقصة القومية .

***

ان قصة الرغيف تصور وعى الطبقة المفكرة فى العالم العربى لمأساة الأمة العربية ابان الحكم التركى ، ويتخذ المؤلف نموذجا لهذه الطبقة الشاب اللبنانى ـ سامى عاصم ـ وهو بطل الرواية . شاب لبنانى مفكر تشتعل فيه حماسة وطنية تدفعه الى الجهاد فى سبيل تخليص وطنه من العبودية ،وتطارده السلطات التركية مع من تطارد من الاحرار ، ثم يقبض عليه ويزج فى سجن (عاليه) بانتظار محاكمته ، ويسام العذاب المنكر اثناء استجوابه فلا يبوح بمخابىء رفاقه . ثم يستطيع أن يؤثر فى قائد الحرس فيفر معه من السجن ، ويأتى الأتراك بجثتين مستورتين بقماش ليوهموا الناس بأنهما جثتا الرجلين الفارين ، وقد قتلا أثناء فرارهما .

وترى (زينة) ـ وهى حبيبة سامى عاصم وخطيبته ـ الجثتين فيهلع قلبها من الحزن واليأس . ثم تستبد بها عاطفة الانتقام وعندئذ تستجيب لدعوة الحاكم التركى الذى كان يرغب فيها منذ زمن طويل ، فقد جاءت ترجوه أن يسمح لها برؤية حبيبها ـ سامى عاصم ـ فى السجن، وتدخل مع الحاكم الى غرفته الخاصة ، وتجلس الى جانبه وهو يشرب فاذا ثمل تتناول مسدسه وتقتله به ، ثم تفر من القصر وتنضم الى فرقة من الثائرين كألوف الشباب العربى المتحرر فى سائر البلاد العربية ، ثم يبلغها أن سامى لم يمت وانما التحق بالمركز الرئيسى للثورة . ويظل يجاهد ضد الترك حتى يسقط شهيدا فى ميدان المعركة . ونستطيع أن نقول ان توفيق عواد قد عالج نقاطا هامة ما زالت الى الآن بالرغم من مضى خمس وعشرين سنة على الرواية جديرة بالمعالجة، كالطائفية مثلا فهو يتخير أبطاله من المسلمين والمسيحيين على السواء ، ويجعل بينهم تعاطفا وتماسكا تزكيه الروح الوطنية فتطفى على العاطفة الدينية. يقول بطل الرواية سامى عاصم لرئيس الحرس وهو مسلم عراقى :

اليوم ولدت القومية العربية الصحيحة ، ان هـذه الثورة التى أمشى فيها انا المسيحى العربى الى جانب العربى المسلم لنحارب عدوا مشتركا لبـلادنا هو التركى سواء اتبع محمدا أم المسيح أم الشيطان .

كذلك نجده يتخذ شخوص روايته من لبنـان والعراق وسورية معتبرا الوحدة العربية قائمة بينهم . فهم يسعون جميعا لهدف واحد هو تحرير الوطن العربى . كما انه يشرك المرأة فى الجهاد ويعطيها دورا هاما فى المعركة ، ويبشر بالاشتراكية . كل هذه المشـكلات التى لا تزال قائمة فى الوطن العربى حاول توفيق عواد معالجتهـا فى روايته (الرغيف) ومما يؤسف له تماما أن توفيق عواد هـذا قد انقطع عن كتابة هذا اللون من الأدب بعد روايته الرغيف على الرغم من النجاح الذى أصابه فيها . كان الرجل قد قال كل مايريد أن يقوله، أو كان كفاحنا قد انتهى بانتهاء الحكم التركى..

وتمضى فترة طويلة والنتـاج القصصى فى ازدياد مستمر ولـكن دون أن نرى فيه انعكاس شعورنا القومى ونضالنا ضد المستعمر كما رأيناه فى قصـته (عودة الروح) لتوفيق الحكيم أو فى قصة الرغيف ، أو كالذى كنـا نراه فى سـائر فنون الأدب من شعر ونثر . مع أن الحركة التحريرية كانت على أشدها فى الوطن العربى. ثم بدأت تظهر بوادره فى القصة القصيرة ، ومما لا ريب فيه أن محاولات كثيرة بذلت لكتابة القصة القومية ولكن الضعف الفنى فى تركيبها حال دون انتشارها أو خلودها ولو لأمد قصير . ويظل هذا حالها أن نفاجأ بنكبة فلسطين !.. تلك المأساة المريعة التى جعلتنا نصحو مذعورين أمام المسئوليات الكبرى التى يتحتم علينا مواجهتها فى كل ميدان . نجد أنفسنا تجاه تجارب عنيفة تهز ضمائرنا كالقتـل والتشرد والجوع والمرض ، والتمزق والفشل نجد ذلك كله ماثلا فى اللاجئين العرب كيفمـا التفتنا . وتأتى تلك التجارب العنيفة مواكبة لحركة الالتزام التى طفت حماها على الأدب العالمى بصورة عامة آنذاك ثم تسربت الى الأدب العربى . ويصبح كأنه حتما لزاما على كل أديب أن يكتب عن المأساة ، وكان لابد للقصة التى تعبر عن النضال القومى أن تنطلق من عقالها وتلحق بالركب . وكان الوقت قد حان أيضا لنضجها واستطاعتها التعبير عن واقعنا الراهن . وبندر حينئذ أن نجد قاصا من قصاصينا الشباب لم يتـأثر بالنكبة وينفعل بها ، ويكتب قصـــة عنها . حتى ان بعض القصص التى كتبت عن الثورة السورية كتبت بعـد نكبة فلسطين . وبين الحادثتين ما يقـارب الربع قرن ، كروا ية (أرض البطولات) وقد فازت هذه الرواية بجائزة الدولة عام ١٩٦٠ وتجرى حوادثها أبان الثورة السورية . وكثير غيرها من القصص القصيرة .

بعد مأساة فلسطين بسنوات قليلة تندلع ثورة الجزائر ، والشعور العربى فى أوج تأزمه وغليـانه ، ثم تأتى حادثة العـدوان على بور سعيد ، ثم الوحدة بين مصر وسورية ، ثم ثورة العـراق على الحـكم الملـكى . ومن الطبيعى جدا أن تصبح هـذه الثورات مادة خصبة للقصـاصين العرب يستوحون أحداثهـا ويقبلون على كتابتهـا بحماسة كنا نفتقدها عند القصاصين الأوائل .

فنحن مثلا لم نقرأ قصصا عن شهداء السـادس من أيار الذين أعدمهم السفاح

التركى جمال باشا ، أو عن اعدام عمر المختار فى برقة ، وكل هـذه الحوادث كانت جديرة بأن توحى بقصص قومية رائعة ، بينما نجد الشعر ـ كما قلنا سابقا ـ لم يقصر فى ذلك أبدا .

ويتدفق سيل من القصص القومية القصيرة فتظهر مجموعات قصصية تحمل غالبا كعنوان لها اسم القصة القومية فى المجموعة كجواز مرور حتى لو كانت تلك القصة القومية أضعف من غيرها من وجهة فنية . نستطيع أن نذكر من هذه المجموعات لا على سبيل الحصر أو التسلسل بل على سبيل المثـال ، ولاعطاء فكرة عن غزارة الانتاج فى هذا المضمار .

مجموعة تاريخ جرح ، للاستاذ فؤاد الشايب ، والدمع المر للدكتور سـهيل ادريس ، وأرض المعـركة لعبـد الرحمن الشرقاوى ، وخـل السيف يقـول ، لعيسى الناعورى ، والتراب الحزين للدكتور بديع حقى ، والشوق واللقاء لفاضل السباعى ، والمناديل البيض لمواهب كيالى ، وغروب فى الفجر لوليـد مدفعى ، والبطل للدكتور يوسف ادريس ، وحتى القطرة الأخيرة لفارس زرزور ، ويحدثونك من القلب لقدرى العمر ، والشرارة الأولى لمراد السباعى ، والثوار مروا ببيتنا لعادل ابى شنب ، درب الى القمة المجموعة القصصية التى اصدرتها رابطة الكتاب العربى فى سورية . هذا عدا عن القصص القوميـة الغزيرة التى نقرأها كل يوم فى الصحف والمجـلات أو فى مجموعات كقصص سميرة عزام القومية ، ومطاع صفدى ، وخليل هنـداوى وغيرهم وغيرهم مما لا يسمح المجال بتعدادهم .

أما الرواية أو القصة الطويلة فحصيلتنا منهـا أضعف من القصـة القصيرة . ونمضى فترة طويلة دون أن نحظى برواية أو بقصـة طويلة ذات طابع نضـالى الى أن يتحفنا الاستاذ محمود تيمور بقصتين طويلتين من هذا القبيل هما المصابيح الزرق ، وثائرون يصورفيهما المؤلف بوادر الوعى القومى عند الشباب، ثم الصراع بين الشعب ومستعمريه . ثم تظهـر ثلاثيـة نجيب محفـوظ ـ بين القصرين ، وقصر الشـوق ، والسكرية ـ ثم تتتالى الروايات والقصص الطويلة ذات الطابع القومى النضالى نذكر منها الحى اللاتينى لسهيل ادريس ، ورد قلبى ليوسف السباعى ، لا تطفىء الشمس لاحسان عبد القدوس، وفى بيتنا رجل له أيضا ، وقصة حب للدكتور يوسف ادريس، جيل القدر لمطاع صفدى ، أرض البطولات لعبد الرحمن الباشا ، ورجال فى الشمس لغسان كنفانى و و ...

ولو اسـتطعنا أن نضـيف الى هـذه الروايات ، الروايات التى كتبهـا الأدباء الجزائريون باللغة الفرنسية وعبروا فيها عن نضال الشعب العربى فى الجزائر لـكان لدينا حصيلة رائعة من حيث الكم والكيف ولكن هذا متعذر على ما نرى ، لأن ملايين العرب لا يستطيعون أن يقرأوا هذا الأدب . فى ثلاثية نجيب محفوظ لم تكن الفكرة القومية النضالية هى الركيزة التى تدور حولها حوادث هذه الثلاثية ، ولكنها كانت جزءا هاما من حياة أسرة مصرية من الطبقة البرجوازية الصغيرة ، وبما أننا نستطيع أن نرى تطور نضالنا القومى فى البلاد العربية طيلة ثلاثة أجيـال من خلال انعكاسه

على هذه الأسرة لتشابه أوضاعنا الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وأخيرا موقفنا من الاستعمار ، وموقف الاستعمار منا . رأينا أن نلخصها ، ولما كان لايعنينا من هذه الرواية الطويلة المتشابكة الأحداث سوى الناحية القومية كان لا بد لنا أن نفصلها عن بقية حوادث الرواية ونركز اهتمامنا عليها .

يصور لنا نجيب محفوظ الشعور القومى عند السيد أحمد عبد الجواد ، التاجر فى سوق النحاسين رب هذه الأسرة شعورا سطحياكغيره من ملايين العرب غير المثقفين فى ذلك العهد . يحب السيد عبد الجواد وطنه ، لأن حب الوطن من الايمان ، ويكره المستعمرين الكفار ، ولا يبخل بماله قدر مستطاعه لدعم الحركة الوطنية عندما يطالبه القائمون عليها بالتبرع لها ، يصفق للمتظاهرين ، ويتلهف على قراءة أخبار الزعماء المنفيين ــ سعد زغلول وزملائه ــ وتتقد فيه الحماسة لنصرتهم ، ولكنه يريد دائما أن يبقى هو وأولاده بمنجاة عن خطورة الاندفاع فى المعركة . وهذا يعنى أن شعوره القومى لم يرق الى درجة التضحية ، لأنه لم يدرك بعد مدى الخطر الذى يحيق به . لذا نراه يمعن فى توبيخ ابنه ــ فهمى ــ الطالب فى الجامعة عندما يبلغه خبر انتمائه الى الحركة الوطنية، فيأتى به الى غرفته وينصحه بالحسنى ويطلب منه أن يقسم على القرآن بألا يعود الى تهوره هذا . ولكن ــ فهمى ــ وهو النموذج المثقف للشباب العربى الواعى آنذاك ، يأبى أن ينصاع لارادة أبيه ، ويتجرأ لأول مرة على مجادلته ، ويدحض آراء أبيه بآيات من القرآن تحض على الجهاد ، ولكن الوالد لا يقتنع ، والابن لا يخضع لارادة أبيه ، ويظل ماضيا فى طريقه الذى اختطه لنفسه فيقول :

سيان أن أحيا أو أن أموت ... الايمان أقوى من الموت ، والموت أشرف من الذل ، فهنيئا لنا الأمل الذى هانت الى جانبه الحياة ، أهلا بصباح جديد من الحرية وليقض الله ما هو قاض .

ويقضى الله بأن يستشهد هذا الفتى فى ذلك الصباح الجديد من الحرية فى احدى المظاهرات !.. وتتحقق نبوءة الأب .

هذه المأساة التى مرت بالسيد أحمد عبد الجواد تجعله أكثر ارتباطا بمأساة وطنه ، وأعمق فهما لها ، وأكثر حماسة .

ويتحقق شىء من استقلال البلاد فيتسلم الزعماء الوطنيون الحكم . ولكن سرعان ما يخيب أمل الشباب الواعى بزعمائه عندما يرى تكالبهم على الحكم ونسيانهم قضية البلاد الى جانب منافعهم الخاصة .

وينشأ جيل من الشباب أكثر ثقافة ووعيا من الجيل الذى سبقه لكنه يقف مكتوف الأيدى تجاه هذه الأوضاع ، يصاب بشىء من التقزز والاشمئزاز ، وضياع الثقة بالنفس . ويتخذ المؤلف ــ كمال ــ وهو الابن الأصغر للسيد أحمد عبد الجواد لهذا الجيل ــ ما أكثر أمثال هذا النموذج فى جميع البلاد العربية !.. الشباب المثقف الواعى الذى لا ينقصه الايمان بقضية بلاده ، انما تنقصه الثقة بنفسه وبمجتمعه ، وبزعمائه ، وبمقدرته على خوض المعركة ، وكلما أوغل هذا الجيل فى الثقافة الغربية

ازداد ضعفا ، وتخاذلا ، وفشلا ، وكأنه قد أصيب بعقدة تسبب له اليأس والتخاذل كلما كان يقارن بلاده بلاده ببلاد الغرب .

نرى «كمال» هذا فاشلا ايضا فى حياته الخاصة مترددا دائما أبدا ، فشل فى حبه، ولم يقدم على الزواج عندما أتيحت له الفرصة أن يتزوج بمن يحب لكثرة تردده ، يتأفف من مجتمعه ومن طراز حياته، ويتطلب الأفضل، ولكنه كان أعجز من أن يحقق هذا الأفضل .

لم نر فيه اقدام اخيه «فهمى» على التضحية فى سبيل حرية بلاده على الرغم من كونه اعمق فهما لقضاياها بل كان يكتفى بمجادلات ومناقشات سلبية تدور بينه وبين أصدقائه ، ولم يخرج عن هذا النطاق ، أبدا ، ولم يرض عن نفسه أبدا حتى نجده يقول :

عشت معذب الضمير كما ينبغى لكل خائن أن يعيش .

ويأتى جيل آخر من الشباب العربى الواعى، يجد أن الاستمرار فى هذه السلبية لا يجدى شيئا ، فيتحتم عليه اذن أن يخرج منها ويواجه مسئولياته . ولكن من أين يبدأ ؟ وأى الطرق يسلك ؟ .

ويقع فى بلبلة وحيرة واضطراب ، ونرى المؤلف قد وفق الى أبعد حدود التوفيق عندما قدم لنا نموذج هذا الجيل الضائع بين الدروب فى شخصيتى أخوين توأمين من أحفاد السيد أحمد عبد الجواد هما : أحمد : وعبد المنعم . لقد تربيا فى بيت واحد ، وفى بيئة واحدة . ولما شبا شعرا بالحيرة والبلبلة كغيرهما من شباب الجيل الضائع .

وينهى نجيب محفوظ روايته وهو يصور لنا ثورة تغلى مراجلها فى الصدور ولكنها لم تهتد بعد الى الطريق السوى الذى يؤدى بها الى تحقيق أمانيها . لا شك أن نجيب محفوظ قد أرخ لهذه الفترة من النضال القومى وأعطانا عنها صورا واقعية تماما فى اطار فنى . فلو أتيح لشخوص روايته أن يوجدوا فى الحياة ، وفى نفس الظروف التى حدثت فيها الرواية لما كان لهم الا أن يتصرفوا كما شاء لهم نجيب محفوظ .

يبدو لنا بعد هذا كله أن القصة القومية من قصيرة وطويلة بدأت تتبوأ مكانتها فى أدبنا القومى . بل نجدها بعد تخلفها الطويل تسير بخطى سريعة ، فقد ازداد فى الآونة الأخيرة اقبال القصاصين والروائين على كتابتها لأنها — كما قلت سابقا — أطوع فنون الأدب على التوجيه وبث المبادىء ، من أجل ذلك كله تقام لها المسابقات وتقدم الجوائز الثمينة للفائزين ، ومن يدرى !! لعلها تبلغ قصب السبق فى نهاية الشوط .